مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

التواصل الإنساني وأثره في وحدة العقيدة بين شمال الصحراء وبلدان السودان الغربي حتى عصر المرابطين

د. مَسْعُود عَبْدُ ٱللهِ ٱلْوَازِنِي

الصلات الإنسانية بين شمال الصحراء وجنوبها

إن عمق الصلات الإنسانية بين سكان القارة الإفريقية قديم قدم الإنسان الذي عمر هذه القارة وتنقل بين أرجائها وذلل صعابها واكتشف مسالكها ونعم بخيراتها واستخرج كنوزها، وقد تواصلت تلك العلاقات عبر الزمن في نمو واطراد يقوي وشائجها الانتماء وتداخل الهجرات ويزيد من رسوخها قسوة الطبيعة واختلاف الإنتاج وتباين مصادر المياه التي فرضت ذلك اللون من ألوان التكامل بين سكان القارة عن طريق التنقل بين أرجائها وتبادل الإنتاج سواء عن طريق المقايضة أو العملة بعد اكتشافها. وإن ما يقال من أن الصحراء كانت حاجزاً طبيعياً أسهم في عزلة إفريقيا السوداء طوال فترات التاريخ مما حال دون

تلاقح الحضارات[1] لا يزيد عن كونه محض ادعاء لا يمكن قبوله أو اعتماد ما جاء فيه وبخاصة بعد أن أثبتت الدراسات أن الصحراء كانت في وقت ما خصبة ثم أقفرت. وعلى الرغم من الوقت الذي تحولت فيه المنطقة إلى صحراء فإنها لم تكن مهجورة تماماً بل كانت تمتلىء بالحياة[2].

وقد دلت بعض الحفريات والكهوف، وبعض بقايا من رسوم الحضارة القبصية أو القفصية التي عثر عليها الآثاريون والجيولوجيون في الصحراء على قيام حضارة مزدهرة في العصور القديمة[3] وحتى بعد حدوث تلك التحولات المناخية الكبرى فقد استطاع الإنسان الإفريقي في ظل ذلك التواصل أن يقهر تلك العوامل عن طريق إيجاد مسالك بديلة وطرق جديدة تصل سكان شمال القارة بوسطها. وإن افتقارنا إلى الوثائق التاريخية التي تتحدث عن الصلات في تلك العصور الموغلة في القدم لا يدل على عدم وجودها ثم إن التدون (تدوين الوثائق) في حقيقة الأمر يعد مظهراً حضارياً لم يصل إليه الإنسان إلا في فترات وعي حضاري متقدم.

ومع ذلك فقد أمكن في هذا العصر بعد تقدم الدراسات التاريخية وعلم الحفريات أن يكتشفوا عمق تلك الصلات ويضعوا حداً لكل ما يثيره علماء الغرب من شكوك عن طريق تقسيم إفريقيا دونما تعليل واضح إلى قسمين: إفريقيا السوداء وإفريقيا البيضاء بقصد إيهام الأفارقة أنفسهم بدور الصحراء في عزلة شمال القارة عن جنوبها، والتأثير في عقل القارىء بالإيحاء الدائم إليه بأن كلا هذين القسمين قد مر بمراحل مختلفة من التغير والتطور، وأن كليهما قد أحدث مؤسسات وأظهر ثقافات متغايرة. ونتيجة لهذا الاختلاف فليس هناك

---

(1) د. بلقاسم الحناشي/ مدخل إلى تاريخ الإسلام والسودان الغربي/ نشر مجلة المرجع/ السنة الأولى/ العدد الثاني. ذو الحجة 1402 هجرية ـ 1982م) إصدار جمعية قدماء الزيتونة ص 52.

(2) د.أ.م. كاني/ مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700م و1700م مع إشارة خاصة إلى كانم بورنو وأرض الهوسا ـ مجلة البحوث التاريخية السنة الثالثة العدد الأول يناير 1981 ـ مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ـ ص 10.

(3) د. بلقاسم الحناشي المرجع السابق ص 60.

شيء مشترك بين السكان في هذين القسمين[4] بل ربما لجؤوا إلى اتخاذ لون البشرة والشكل عموماً إلى جانب العوائق الطبيعية وانعدام الوثائق التي تحكي عن تلك الصلات القديمة من بين المقاييس المعتمدة في التدليل على نفي الصلات الاجتماعية، فوصفوا الماندنجو بأنه طويل نحيل تقاطيعه تقرب من السحنة القوقازية غزير شعر اللحية إذا قورن بسائر الزنوج والبشرة خفيفة السمرة، ووصفوا قبائل الولوف التي تشغل المناطق التي تمتد إلى الجنوب من نهر السنغال بالتقاطيع الزنجية الشديدة السمرة وقالوا عن السوننك إن بشرتهم لم تتغير بعض الشيء إلا بعد اختلاطهم بغيرهم من العناصر ولا سيما البربر[5] بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين نسبوا اكتشاف القارة إلى جهود البعثات الغربية. وكأن القارة قد ظلت مجهولة حتى لدى أبنائها تنتظر رحمة هؤلاء حتى يخرجوها إلى عالم الوجود، أو أن يكونوا شهود إثبات ونفي لتلك الأصول المشتركة بين سكان القارة فما أقروه منها صار معتداً به وما أنكروه دخل دائرة العدم. إن مثل هذه الادعاءات التي يثيرها الغرب ومن سار في ركابه يدحضها الواقع نفسه، فالصحراء قد ظلت غنية بواحاتها ومسالكها لم يغادرها العمران البشري بعد رغم ما يقال عن قسوتها وصعوبة الحياة فيها.

حقاً إن الوثائق التاريخية التي يلوح بها أمثال هؤلاء ليوهموا بها من تنطلي عليهم مثل هذه المؤامرات تبدو مهمة، ولكن ذلك لا يعني أن الصلاة لم تكن قائمة قبل ظهور تلك الوثائق أو العثور عليها أو أنها تساوقت معها. وإن أقصى ما يمكن أن نستخلصه من تلك الوثائق عند العثور عليها في أي مرحلة تاريخية أن نتخذها شاهد إثبات على قدم تلك الصلات الاجتماعية ومدى عمقها، وبخاصة في قارة متجانسة لم تحل العوائق الطبيعية دون اطراد تلك الصلات واستمرارها. وقد أرغمت هذه العلاقات القوية الباحثين على الاعتراف بالصلات

---

(4) د.أ.م كاني مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية، بحث منشور مجلة البحوث التاريخية العدد الأول يناير 1981م ص 9 بتصرف. انظر د.عصمت عبد اللطيف دندش. دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. ط1/ 1408 هـ دار الغرب الإسلامي بيروت ص 45 ـ 46.

(5) انظر: الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش/ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ـ ط1/ 1408 ـ 1988 دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ ص 45 و46.

المشتركة بين سكان شمال الصحراء وجنوبها وبالعرب عموماً وقد أكد بوفيل (Boville) بأن دماء الذين قدموا من الصحراء أو من الأراضي الممتدة إلى شمالها ما زالت تجري في عروق بعض شعوب السودان وكذلك فإن دماء السودانيين قد تركت آثارها في أهل الواحات في الصحراء وفي أهل المدن في الغرب[6] وهو ما أكده أيضاً (بعض المؤرخين المحليين من أهل السودان بقوله: إن أسراً معينة في بلاد السودان ترجع بأصولها إلى أرومة عربية[7] قد هاجرت من اليمن والعراق وأرض كنعان واستقرت في جنوب الصحراء. ويذهب سكان بورنو إلى القول بأنهم(ينحدرون من نسل سيف بن ذي يزن البطل العربي الذي هاجر من الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى أرض سيما (Sima) من أعمال كانم وأقام بها. وإن أسرة السيفيين هذه أي المنتمين إلى سيف بن يزن ـ قد حكمت منطقة كانم بورنو لمدة ألف عام تقريباً)[8] كما يؤكد الفولانيون أن أصولهم أتت من المشرق واستوطن أخلافهم جنوب المغرب في حوض السنغال ظاعنين ومستقرين، ويقال إن عقبة ابن نافع تزوج منهم ونسل مما جعل تلك القبائل تدخل الإسلام في القرن الأول الهجري بحكم تلك الصلة القوية التي تربطهم بالعرب وبعقبة بن نافع[9]. ثم إن ما لابس هذه الهجرات المتعاقبة والتنقلات الاضطرارية لظروف اقتصادية أو سياسية من اختلاط ومصاهرة لا يجعل تنظيم جدول زمني لكل مجموعة وحدها سهلاً، إضافة إلى أن الامتزاج بين هذه المجموعات قد بلغ أحياناً حداً انتهت فيه بعض العناصر إلى الانصهار الكلي[10]، وأصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل التمييز بين مجموعة وأخرى إلا بانفتاح اللوح المحفوظ.

---

(6) المصدر السابق/ ص 15.

(7) انظر: د.أ.م كاني/ المصدر السابق/ ص 15.

(8) المصدر السابق/ ص 11.

(9) انظر: د. حسن عيسى عبد الظاهر/ الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني ـ ط1/ 1412 هجرية ـ 1991م/ الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة/ ص 69.

(10) انظر د. حسن عيسى عبد الظاهر ـ الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني ط/ 1 1412 هـ ـ 1991م. ـ الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ـ ص 69.

وإذا ثبت لدينا في بعض مراحل التاريخ ما أصاب تلك العلاقات بين سكان القارة من ضعف وفتور بسبب العوامل الطبيعية الكثيرة التي أسهمت إلى حد كبير في التقليل من فرص الاتصال كلما اتجهنا إلى الجنوب فإن ذلك لا يطعن في الأصول المشتركة بين سكان القارة، كما أن لون البشرة الذي يرجع إلى عوامل جغرافية متباينة لا يطعن هو الآخر في الأصول المشتركة، وإن الذين اتخذوا اللون أساساً للتفريق بين سكان القارة أو بينهم وبين غيرهم من سكان المعمورة اعتماداً على ما يسمى بجغرافية الأجناس فإن ذلك لا يعدو أن يكون محض ادعاء قائم على شعور الاستعلاء الذي حاول الغرب ومن سار في ركابه الترويج له بنظريات واهية ليس لها أساس من منطق أو دين. وإن أبلغ رد على هذه المزاعم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية: 13].

مسالك الاتصال:

لقد أصبحت الصحراء بعد تلك التحولات المناخية الكبرى التي سبقت الإشارة إليها تمثل حاجزاً كبيراً تصل مساحته (12 مليون ك.م مربع) اثنى عشر مليون كيلومتر مربع تمتد في شكل حزام يتوزع السكان بين شمالها وجنوبها ويطلق على سكان الجنوب المتاخمين للصحراء بدءاً من بلدان حوض السنغال غرباً حتى حوض بحيرة تشاد شرقاً السودان الغربي.

وبالرغم من تلك التحولات الجغرافية المتمثلة في ظهر بحار من الرمال مع قلة مصادر المياه وبعد المسافات التي تفصل الواحات الصالحة للحياة بعضها عن بعض وما ترتب على ذلك كله من صعوبات فإنها لم تحُل دون إرادة الإفريقي في قهر تلك العوامل وعدم الاستسلام لها تفانياً في سبيل أداء رسالة التواصل، وذلك عن طريق إيجاد مسالك تصل شمال الصحراء بجنوبها، تلك المسالك التي يرجح أنها كانت في تلك الفترات التاريخية المتباعدة متعددة، ثم بدأت تقل شيئاً فشيئاً تحت ظروف مناخية متغيرة إلى أن اختفى جلها ولم يبق منها سوى طرق محدودة ظلت محط أنظار الباحثين (يحاذي إحداها ساحل المحيط وتنتهي في السنغال (تكرور وسلّى)، والثانية من سلجماسة في جنوب

المغرب الأقصى مارة بتغازة وتنتهي في أودغست عند الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، وطريق ثالثة كانت تبدأ من تاهرت عاصمة الرستميين وتنتهي إما في تغازة وأودغست وإما في تادمكة المعروفة اليوم بالسوق وأما الطريق الرابعة فكانت تبدأ من إفريقية القيروان أو طرابلس الغرب وتمر بغدامس وتادمكة وتنتهي عند نهر النيجر أو في كانم منطقة بحيرة تشاد مارة بفزان[11] مع اختلافات يسيرة بين هذه المعابر من باحث إلى آخر، فهنالك من يرى أن طريق القيروان يمر مباشرة بغدامس غات ثم أغاديس ومنها يتفرع إلى مدن أخرى، أما طريق طرابلس فهو يمر بفزان ومنها إلى بيليما ثم يتفرع إلى عدة مناطق منها بورنو وكانم وأغاديس وإلى غيرها من المناطق، وأخرى تمتد من أوجلة إلى فزان ومنها إلى مناطق أخرى في السودان[12]. وإلى جانب هذه الطرق فمن المرجح أن هنالك مسالك فرعية أخرى كان يلجأ إليها سكان الصحراء تحت ظروف قاهرة. ومن يدري فلعل الجهود العلمية تكشف لنا مستقبلاً عن معابر أخرى قد غطتها بمرور الأيام الكثبان الرملية، ولم تعد صالحة للاستعمال، وإن هذه الطرق رغم قلتها فقد كان لها دور لا يجحد في المحافظة على استمرار حلقات التواصل الاجتماعي وعقد المبادلات التجارية لتغطية الأسواق الإفريقية والعالمية بما تحتاج إليه من المنتوجات ولا سيما الذهب[13].

وبالرغم من عمق هذه الصلات واستمرارها قديماً وحديثاً فإن الدكتور إبراهيم حركات قد أثبت أن التفاعل بين سكان الصحراء وجنوبها والأقطار المتاخمة لها يرجع إلى عهود سحيقة أي إلى مرحلة ما قبل التاريخ، لكنه عندما تحدث عن العصر الوسيط قال: (لا توجد دلائل قوية إلى الآن على وجود نشاط تجاري واسع قبل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي بين أقطار الشمال

---

(11) الدكتور أمين الطيبي، بحث قدم في الندوة العالمية عن الحضارة العربية الإسلامية ودورها في تقدم الإنسانية التي عقدت في إشبيليا. نشر مجلة البحوث التاريخية العدد الثاني 1980.

(12) انظر: الدكتورة/ عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام وقيام دولة الفولاني ط1/ 1408 هجرية - 1988م. دار الغرب الإسلامي - بيروت. ص 47 وما بعدها.

(13) د. إبراهيم حركات، دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتنسيق خلال العصر الوسيط - نشر بمجلة البحوث التاريخية - العدد الأول - يناير 1981م. ص 27.

والجنوب عبر الصحراء[14] دون أن يبدي سبباً وجيهاً لضعف ذلك النشاط. وهو وإن بدا استنتاجه مقبولاً فيما أشار إليه من تفاعل في القديم فليس لديه على الأقل ما ينفي استمرار ذلك النشاط في العصر الوسيط، وبخاصة أن التبادل التجاري أو الصلات الاجتماعية لا يمكن أن تترك آثاراً ملموسة أو أن تدون في شكل وثائق يمكن الرجوع إليها فيما بعد بل من المؤكد أن الفترة التي سجلت تفاعلاً إيجابياً في القرن الثالث الهجري كفيلة بأن تجيب عما كان سائداً قبلها وكل الذي تميزت به عن سابقتها يتمثل في العنصر الجديد الذي أضيف إلى بقية العناصر وهو ما يجعل المقارنة غير عادلة. ولو توقف عند حركة المد الإسلامي لأدرك دور الدعوة والدعاة في تنمية تلك الصلات وتطويرها بشكل ملحوظ.

وأياً كان الأمر فإن القوافل التي كانت تجوب الصحراء عبر تلك المسالك لتغطية الأسواق أصبحت معابر للدعاة الذين يصحبون تلك القوافل في أول الأمر أو معابر لحركة الجهاد الإسلامي التي نشطت بعد استقرار الإسلام في شمال القارة. لا شك في أن دخول هذا العنصر الجديد قد ضاعف من حركة التواصل المعهودة بين شمال الصحراء وجنوبها.

دخول الإسلام بلدان السودان الغربي:

لقد تضاعفت أهمية تلك المسالك وقوي تأثيرها بوصول طلائع الفتح الإسلامي شمال القارة، فلم تعد الصلات كما كانت في القديم تقتصر على العلاقات الإنسانية والمبادلات التجارية وإنما أصبحت بعد الفتح الإسلامي تحمل عبر مسالكها دعوة الحق التي لم يحل دون وصولها إلى تلك المناطق المتاخمة لجنوب الصحراء سوى تأخر وصول طلائع الفتح الإسلامي إلى شمال القارة وما إن تم لها فتح طرابلس حتى اتجهت بقيادة عقبة بن نافع إلى كاوارا[15] عبر الطريق الذي كان يربط ساحل طرابلس بكانم مروراً بفزان وفي رواية أخرى أن طلائع الفتح لم تتوقف عند كاوار وإنما واصلت تقدمها إلى كانم بورنو وتم

(14) المصدر السابق - ص27.

(15) انظر: د. حسن عيسى عبد الظاهر. مرجع سابق، ص 82 - 83.

لها فتحها (سنة 46 هجرية)[16] وهنالك رواية ثالثة تقول إن بني أمية أرسلوا جيشاً إسلامياً لفتح بلاد السودان الغربي في صدر الإسلام واستقرت ذرية هذا الجيش في بلاد غانا وبذلك يكون إسلام غانا في أول الفتح الإسلامي[17]. وربما هذا ما عناه أحمد بابا التنبكتي من أن الإسلام وصل إلى قلب السودان غرب إفريقيا في القرن الأول... بل لم يكد يمضي عام 60 هـ. حتى ظهر اثنا عشر مسجداً في مدينة غانا القديمة (كومبي صالح)[18].

وإذا كان المقصود بهذا الجيش الطلائع التي قادها عقبة بن نافع فيكون

(16) انظر: د.أ.م كاني، مرجع سابق ص 12 ـ 13.

(17) د. حسن عيسى عبد الظاهر، مرجع سابق ص 92..

(18) د. حسن عيسى عبد الظاهر، مرجع سابق، ص 91.

الجيش قد تجاوز المناطق التي أشارت إليها الروايتان السابقتان، وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك وأخذنا بالرواية التي تقول إن عقبة بن نافع قد توقف عند كاوار فإن الدعوة الإسلامية لم تتوقف وإنما واصل الدعاة، وربما من الذين دخلوا الإسلام من كاوار أنفسهم، نشر الإسلام في مناطق أخرى عبر ذلك الطريق الذي يعد امتداداً طبيعياً منذ زمن بعيد بين طرابلس وكانم.

أما ما يروى من أن عقبة بن نافع كان في نيته أن يواصل تقدمه إلى الجنوب لو أعلمه أحد بأن هنالك عمراناً بشرياً بعد كاوار فهي رواية لا تتفق مع مركز كاوار التجاري الذي يربط بين الاتجاهين، إلى جانب قربها من السافانا ووقوعها على الطريق نفسه من طرابلس كانم المعروف لدى سكان تلك المناطق منذ أمد بعيد. وما دام الأمر كذلك فإن هنالك ما يدعو إلى البحث عن أسباب أخرى لذلك الانسحاب المبكر من تلك المناطق إذا علمنا أن طلائع الفتح لم تواجه في تلك الربوع أية مقاومة تذكر، ولم يقل أحد أنها لجأت إلى السيف، ولو واصلت تقدمها نحو الجنوب لأمكنها نشر الإسلام بأقل الخسائر التي لحقت بها في فتوحاتها لشمال القارة، فضلاً عن أن عقبة بن نافع ما كان له أن ينسحب وهو يرى امتداد الأرض أمامه وهو القائل عندما وقف على المحيط (اللهم إنك تعلم أني أريد ألا يعبد على وجه الأرض أحد سواك ولو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لوطأتها... اللهم اشهد أني بلغت عذراً)[19].

ولذا فإن اهتمام الفاتحين بشمال القارة قبل غيرها تحكمه عوامل أخرى ترجع إلى عدم توقع طلائع الفتح الإسلامي لأي خطر قد تهب رياحه من تلك المناطق. وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك فإن الصدام مع تلك الشعوب، على فرض وقوعه، يأتي في المرتبة الثانية، أما الصدام الحقيقي فهو مع الروم وقد بدأت مراحله الأولى في الشام[20]. ولو لم يكن الأمر كذلك لاتجهت طلائع الفتح لنشر الإسلام في تلك المناطق عبر باب المندب والقرن الإفريقي، وهذا

(19) عبد العزيز الثعالبي/ تاريخ إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية ـ ط1/ 1407 هجرية ـ 1987م. دار الغرب الإسلامي ـ بيروت/ ص 52.

(20) انظر: د. حسن عيسى عبد الظاهر/ المصدر السابق/ ص 89.

وحده كفيل بتفسير انسحاب طلائع الفتح من تلك الربوع واتجاهها نحو الشمال للقضاء على الخطر الحقيقي الذي كان يتهدد الإسلام والمسلمين.

وقد اصطدمت طلائع الفتح مع الروم في مواقع عديدة ولكنها تمكنت في النهاية من مواصلة تقدمها في اتجاه المغرب الأقصى ونشر الإسلام بعد تحرير تلك الشعوب من سيطرة الروم الدخلاء. وهنالك رواية تقول إن عقبة بن نافع قد أدرك مدينة نوال في المغرب الأقصى، وبذلك يكون قد توغل في ديار الملثمين الذين ينتشرون في المنطقة الممتدة من جبال درن إلى نهر السنغال. وهناك ابتنى مسجداً في مدينة ماسة، وقد ترك بين هذه القبائل بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام. ويبدو أنه أقر شيوخهم على ما بأيديهم من سلطة[21]. وهكذا تجد أن عقبة بن نافع لم يتجه للمرة الثانية نحو الجنوب، ولا أعتقد أن أحداً أشار عليه كما سبق بعدم وجود عمران بشري خلف تلك المواقع التي وصل إليها. وإنما كان الهدف من وراء ذلك كله يكمن في تثبيت دعائم الإسلام، وتعزيز وجوده في منطقة كانت تخضع للروم، وأهلها حديثو عهد بالإسلام، وهو ما يفسره استشهاد عقبة بن نافع سنة 46هـ وهو في طريق عودته إلى القيروان، فضلاً عن أن الروم لم يسنوا قانوناً يحرمون فيه على أنفسهم العودة إلى الشمال الإفريقي أو مهاجمة الفاتحين من جديد والتصدي لإيقاف المد الإسلامي الذي بدأ يكتسح المناطق واحدة بعد أخرى.

وسواء وصلت طلائع الفتح الإسلامي تلك المناطق المتاخمة لجنوب الصحراء أم توقفت عند مشارفها، فإنه من المؤكد أن استقرار الإسلام بالشمال كاف وحده في التعريف بالإسلام ونشره على أيدي التجار، عبر تلك الطرق التي كانت تربط بين شمال الصحراء وجنوبها (وبخاصة بعد أن أسلم الملثمون وكونوا دولة إسلامية مجاورة لبلاد السودان الغربي منذ القرن الثاني الهجري)[22]. ولا نعني بذلك أن سكان شمال القارة هم وحدهم الذين أسهموا في حمل راية

---

(21) الدكتورة/ عصمت عبد اللطيف دندش/ مصدر سابق/ ص 37.

(22) د. محمد عبد الله النقيرة/ التأثير الإسلامي في غرب إفريقيا/ ط1 ـ 1408هـ ـ 1988 مطبعة الفرزدق التجارية ـ الرياض/ ص 271.

الإسلام إلى بلدان السودان الغربي دون غيرهم بما أن حركة التبادل التجاري كانت تسير في اتجاهين. بل من المرجح أن التجار السودانيين بعد أن أسلموا قد أسهموا بجهود كبرى في نشر الإسلام والتبشير به في مناطقهم، لمعرفتهم لغات أقوامهم أولاً ولما كانوا يتمتعون به من مكانة اجتماعية قوية بين مجتمعاتهم ثانياً، وهو ما يتفق مع قبائل الهوسا التي وصفت بنشاطها التجاري الكبير وتنقلاتها الواسعة[23]، وما عرفت به أيضاً قبائل السوننكي من حماس لنشر الإسلام حتى أصبح اسمها إذا ذكر يشير من طرف خفي إلى كلمة داعية إسلامي[24]. وكذلك الأمر فإن ما كان يجري من نشاط تجاري واسع في مدينة جنّى الواقعة على إحدى فروع نهر النيجر قد ساعد الدعاة من الجانبين على نشر الإسلام في هذه المدينة وما حولها فيما بعد[25].

وإذا كنا قد رأينا أن تلك العلاقات القديمة والصلات التجارية القائمة بين شمال الصحراء وجنوبها قد مهدت للدخول في الإسلام وساعدت الدعاة على التبشير به فإن ذلك لا يعني أن الإسلام قد اكتسح المنطقة كلها في وقت مبكر. فالبدايات كانت متواضعة يصعب تحديدها أو ملاحقتها زمنياً عبر تلك الطرق التي كانت تربط الشمال بالجنوب من أكثر من منفذ، أو معرفة أولئك الذين أسهموا في نشر الإسلام في تلك الربوع وبخاصة أن بلدان السودان الغربي لم تخضع للحكومة المركزية في دمشق أو بغداد حتى يمكننا، على الأقل، الوقوف على جهود الحكومة المركزية في نشر الدعوة عن طريق إرسال الفقهاء والقراء كما كانت تفعل مع الشمال. وربما كان هذا ما حمل (الفرد بل) على التصريح بعدم معرفته الكيفية التي بدأ عليها إسلام سكان الصحراء من السنغال والنيجر، كما تساءل عمن نشر بينهم الإسلام. وكل الذي يعرفه هو أنه وجد (إن بعضهم على الأقل كانوا يعرفون

---

(23) الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش/ المصدر السابق/ ص 153.

(24) د. أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ط4/ 1983 مكتبة النهضة المصرية القاهرة جـ 6/ 68.

(25) د. عبد العزيز راشد العبيدي/ مركز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي/ مجلة دراسات إفريقية/ العدد الخامس ربيع الأول 1410 هـ - أكتوبر 1989م. المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم/ ص 77.

فروض الإسلام، وكانوا يحجون إلى مكة وكانت أسماؤهم عربية)[26] وهو أمر طبيعي لا يستدعي سؤالاً فالبدايات المتواضعة والجهود الفردية يصعب تحديدها في كل الأمور فما بالك بانتشار العقائد والأفكار.

ومع ذلك فإنه يمكن أن نعتمد على ما بين أيدينا من تلك الإشارات التي وردت بخصوص طلائع الفتح الإسلامي التي يقال إنها وصلت إلى مشارف الصحراء أو تجاوزتها، كما جاء في أكثر من رواية، وما تبع ذلك بعد استقرار الفاتحين في الشمال من اهتمام بتلك المناطق، من نحو ما قام به حفيد الفاتح عقبة بن نافع عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة في أواخر العهد الأموي الذي سار في الاتجاه نفسه الذي بدأه جده من نصف قرن، فعبر بجنده الصحراء إلى مضارب صنهاجة الجنوب، وأمر بإنشاء سلسلة من الآبار بين الواحات مما سهل على القوافل عبور الصحراء بدون عناء[27]، أو ما ترتب على بعض الهجرات أو الاضطهادات السياسة التي جعلت أمثال هؤلاء يختارون اللجوء إلى تلك المناطق ثم تحولوا بعد ذلك إلى دعاة أو من غيرهم ممن نذر نفسه للدعوة الإسلامية في تلك الربوع سواء من التجار أو أرباب الحرف أو من بعض القبائل كما جاء عن قبيلة بني وارث الصنهاجية التي أسلمت على يد عقبة بن نافع في حملته على الصحراء، ثم تصدت بعد ذلك لنشر الإسلام في بلدان السودان الغربي[28]. فإذا أضفنا إلى ذلك ما تميز به الإسلام من وضوح في العقيدة وانسجام مع الفطرة ويسر في التكاليف وعدم مصادمة للعقل في كل ما جاء به نجد أنفسنا أمام واقع يقلل من ذلك الغموض الذي يكتنف تلك البدايات المتواضعة في تلك المراحل الأولى لانتشار الإسلام. ومن يدري فلعل الأيام تكشف لنا عن وثائق تتضمن أسماء أبرز الدعاة الذين أسهموا في مجال الدعوة في تلك المرحلة وكانوا سبباً قوياً في تهيئة بلدان السودان الغربي لقبول الإسلام.

---

(26) الفرد بل/ الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي حتى اليوم/ ترجمة د. عبد الرحمن بدوي / ط3/ 1987 دار الغرب الإسلامي ـ بيروت/ ص 228.

(27) انظر: دكتورة/ عصمت عبد اللطيف دندش/ المصدر السابق ص 40.

(28) انظر: البكري أبو عبد الله عبد العزيز (ت ـ 487هـ ـ 1094م) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ـ ط1/ 1966م. مكتبة المتنبي / بغداد/ ص 164.

فإذا تجاوزنا تلك المرحلة المبكرة من تاريخ دخول الإسلام إلى البلدان المتاخمة لجنوب الصحراء نجد أن الأمر بدأ يأخذ طابع الوضوح، وبخاصة بعد اتحاد قبائل لمتونة وجدال ومسوفة تحت رعاية زعامة تيولوتان (ت222هـ ـ 836م)[29] الذي تبنى حركة الجهاد لنشر الإسلام ثم واصلت تلك القبائل دورها في عهد المرابطين فأسقطت إمبراطورية غانا[30] وهي من أقوى ممالك السودان الغربي وواصلت دورها في نشر الإسلام بعد أن توقف المد الإسلامي نتيجة للفتن وقيام دويلات شغلت بالمنازعات الشخصية والعصبية. وساعد في عهدهم تكون طبقة من أهل السودان ممن تلقوا تعليمهم على المغاربة فأتقنوا اللغة العربية وعلوم الفقه والحديث، وكان العلماء والطلبة يقومون بالرحلات من مدن السودان وحواضر المغرب المختلفة يعلمون ويتعلمون)[31]. غير أنه لا ينبغي أن نبالغ كثيراً في وصف المرابطين بالرواد الأوائل في نشر الإسلام في تلك الربوع ـ كما يرى بعض الباحثين ـ أو نقر ما ذهب إليه الغربيون الذين تعمدوا طيّ المرحلة السابقة بما فيها منكرين دخول الإسلام قبل ظهور المرابطين، وتقويضهم مملكة غانا ذات الحضارة في نظرهم، واحتلال مكانها كما استهل في شمال القارة بالقضاء على الروم وحضارته[32]. ومن غير تقليل من جهود المرابطين فإنه من المرجح أن دورهم قد اتجه إلى ضم تلك الممالك إلى مناطق نفوذهم كما فعلوا مع الشمال أكثر من نشرهم الإسلام في شعوب قد سبقتهم إلى معرفته، وتفتحت له قلوب الكثيرين منهم من غير إرغام بالقوة أو لجوء إلى قتال. ولا أدل على ذلك من أن ممالك إفريقيا التي تباكى عليها الغرب قد أقر المرابطون من أسلم من ملوكها الاستمرار في حكم شعوبهم، ومنهم ملك غانة بعد أن أقرّ بولائه للمرابطين، وذلك يرجع إلى أن بعضهم كان مسلماً وبعضهم الآخر كان مهيئاً لقبول الإسلام أو أن أغلب شعوبهم كانت على دين الإسلام، ومنها قبائل

(29) البكري / المصدر السابق/ ص 159.

(30) انظر: دكتورة. عصمت عبد اللطيف دندش / المصدر السابق/ ص 114.

(31) المصدر السابق/ ص 223.

(32) د. حسن عيسى عبد الظاهر / المصدر السابق/ ص 92.

التكرور التي كانت تطلق في يوم ما على السودان كله ولم تأت عليها سنة 430هـ إلا وقد اعتنقت الإسلام[33]، وكذلك مدينة جنّى التي أسلم ملكها كنبر[34]. وهذا يعبر بحق عن مدى تجاوب البلدان المتاخمة لجنوب الصحراء لما يجري في شمالها. وسوف يتضح هذا التفاعل بمزيد من الوضوح من خلال الاتجاه السني والأشعري اللذين يعبران عن عمق هذا التواصل.

المراكز العلمية:

لقد اتجهت دعوة الإسلام منذ إشراقة نوره إلى تأسيس المساجد كخطوة أولى لإرساء دعائمه ونشر مبادئه والتبشير به من فوق منابر ظلت تشع بنورها علماً وفكراً وحضارة وتُعِد دعاة لحمل راية هذا الدين وتبليغ رسالته السامية إلى من شرح الله صدره وتفتحت مداركه لقبول دعوة الحق.

وقد درجت طلائع الفتح الإسلامي أينما حلت وكتب لها النصر على بناء مساجد لمواصلة نشر الإسلام سواء أقامت تلك الطلائع أم غادرت المكان إلى فتح غيره وعينت لهم من يقوم بواجب الدعوة من بين الفاتحين أو ممن دخل الإسلام وحسن إيمانه.

وتؤكد الروايات أن طلائع الفتح التي اتجهت إلى كانم لم تغادر المكان إلا بعد بناء مساجد ظلت منابر لإعلان دعوة الحق ونشر الإسلام وتهيئة الأجواء المناسبة فيما بعد لقيام ممالك إسلامية في جنوب الصحراء.

وإذا كنا قد رأينا أن الفاتحين لم يواصلوا تقدمهم نحو الجنوب لفتح المزيد من المناطق، فإن ما قاموا به من فتوحات في الشمال قد عوض ذلك النقص عن طريق تأسيس مساجد ومدارس ظلت محط أنظار أهل الشمال، كما هي محط أنظار من أسلم من أهل الجنوب. وقد نهل منها العديد من طلاب العلم ثم عادوا إلى مناطقهم دعاة مبشرين، أو انطلقوا من تلك المراكز من أهل الشمال ومن غيرهم للتبشير بالإسلام في بلدان السودان الغربي. ولعل من أبرز المدن

---

(33) انظر البكري/ مصدر سابق/ ص 159.

(34) انظر: د. عبد العزيز بن راشد العبيدي / المصدر السابق/ ص 77.

العلمية التي أطبقت شهرتها الآفاق، وارتحل إلى مسجدها الكبير طلاب العلم من شمال القارة وجنوبها، وقصدها العلماء من مختلف الأنحاء، مدينة القيروان[35] التي اختطها الفاتحون في شمال القارة واتخذوها مقراً لهم ودرعاً للمسلمين يلجؤون إليها كلما حز بهم أمر أو نزلت بهم ضائقة، ثم لحقت بها مدينة فاس التي بلغت هي الأخرى أوج عطائها الفكري في القرن الخامس الهجري[36] إلى جانب العديد من المساجد، ومنها مسجد موسى بن نصير الذي

(35) القيروان لفظ فارسي معناه محط الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب شرع عقبة بن نافع في بنائها عام 50 من الهجرة واستغرق بناؤها مدة خمس سنوات.

(36) انظر الدكتورة /عصمت دندش/ المصدر السابق/ ص 60 نقلاً عن زهرة الآس في بناء مدينة فاس للجزنائي/ ص33.

أسسه بمدينة أغمات في أواخر القرن الأول الهجري[37]، وكذلك بقية الرباطات، ومنها رباط عبد الله بن ياسين داعية المرابطين وقد اختاره صحبة يحيى بن إبراهيم الجدالي في مهجر بعيد... يقع في حوض السنغال الأدني[38]. ثم مدينة تنبكت التي أصبحت تضاهي المراكز العلمية في الشمال.

وقد ألحقت بتلك المساجد مكاتب لتحفيظ القرآن أدركت أجيالهم الأولى أصحاب رسول الله ﷺ. وفي هذا حدث غياث بن حبيب أن سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ كان يمر عليهم وهم غلمة بالقيروان فيسلم عليهم في الكتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه)[39].

وقد عملت تلك المراكز منذ تأسيسها على تأصيل الفكر السني وتعميق جذوره ثم الأشعري، مما جعل روادها يتصدّون فيما بعد لكل فكر دخيل، ويقارعون الاتجاهات العقدية التي حاولت أن تتسلل عن طريق المعتزلة والخوارج والشيعة إلى تلك المناطق.

وقد ساعد على تأصيل الفكر السني تلك البعثات المبكرة من الفقهاء الذين التحقوا بالقيروان للتدريس بمسجدها الكبير. حتى إنه يمكن أن نعد الصحابة النواة الأولى في بناء هذه المدرسة ثم تتابعت جهود التابعين بعد ذلك. فقد كلف حسان بن النعمان (ت86هـ ـ 709م) ثلاثة عشر فقيهاً من كبار التابعين بتعليم القرآن والتفقيه في الدين ونشر العربية)[40] ثم بعث عمر بن عبد العزيز في حدود سنة 100 هـ/ 723) إلى إفريقية عشرة فقهاء من التابعين وكانوا جميعاً من المشهود لهم بالفضل والعلم. وكان على رأسهم إسماعيل بن أبي المهاجر الذي ولي إفريقية (سنة 100 هـ 723م) وكان من المشهود لهم بحسن

---

(37) د. حسن عيسى عبد الظاهر / المصدر السابق/ ص 83.

(38) المصدر السابق/ ص 105.

(39) د. حسن عيسى عبد الظاهر / المصدر السابق/ ص 84 نقلاً عن معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان / ط1/ 1330 هـ ـ تونس 1/ 120.

(40) د. عبد المجيد بن حمدة / المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية / ط1/ 1406 هـ ـ 1986م. دار العرب تونس/ ص 33.

الإمارة والاهتمام بنشر الإسلام[41].

وقد سبق هؤلاء الفقهاء العشرة أبو عمران خالد التجيبي (ت125هـ أو 129/ 742 أو 746م) الذي يرجع له الفضل في نشر علم فقهاء المدينة بإفريقية، واستقر بمدينة تونس بعد بفتحها من قبل حسان بن النعمان[42]، ثم تتابعت جهود الفقهاء في وضع أسس المدرسة السنية في الشمال الإفريقي. ومن بين الطلبة الأفارقة الذين تلقوا علومهم على هؤلاء أبو البقاء عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وابن فروخ (ت172هـ)، والبهلول بن راشد (ت182هـ ـ 798م)، وعلي بن زياد الذي أدخل معه موطأ الإمام مالك سنة (150هـ ـ 767م) لأول مرة إلى إفريقية[43].

ثم انتهى علم هؤلاء إلى الإمام مالك الذي أصبح يمثل مدرسة أهل السنة في العقيدة والفروع قبل ظهور الأشعري.

ولا يعني ذلك أن منطقة الشمال الإفريقي ظلت بمنأى عن التيارات العقدية التي ظهرت في الشرق وامتد تأثيرها فيما بعد إلى مختلف المناطق، ولكنها (لم تبلغ في عمومها من القوة والعمق ما تستطيع به أن تكون تياراً عاماً ذا شأن يستطيع أن يقارع التيار الغالب على أهل المغرب المتمثل في سلفيتهم القائمة على العقيدة في ثوبها المأثور عن الصحابة والتابعين[44] ولا أدل على ذلك من أن (الخوارج على الرغم من أنهم تمكنوا من تكوين دولتين بالمغرب هما دولة بني مدرار التي أقامها الصفرية بسلجماسة سنة 140 هـ/ 757م)، والرستمية التي أقامها الإباضية بتاهرت سنة 160 هـ/ 777م) فإنها لم يبق لها في القرن الخامس أثر مهم وخاصة بالمغرب الأقصى[45]، وكذلك الدولة الفاطمية التي امتد نفوذها حتى شمل مدينة القيروان التي كانت منبعاً للفكر السني. ومع ذلك لم يدخل في

---

(41) المصدر السابق/ ص 33.

(42) ابن زياد ـ موطأ ابن زياد / محمد الشاذلي النيفر / ط1/ د. ت/ الدار التونسية/ ص 24.

(43) انظر: د. عبد المجيد بن حمدة/ المصدر السابق/ ص 36.

(44) د. عبد المجيد النجار/ المهدي بن تومرت /حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب) ط1/ 1403 هـ/ 1983م دار المغرب الإسلامي/ ص 50.

(45) المصدر السابق/ ص 49.

المذهب إلا نفر قليل[46]. وظلت المقاومة مستمرة حتى زالت هي الأخرى ولم يبق لآرائها أثر. كما ظهر الفكر الاعتزالي، وبقي هو الآخر يكتسي ـ كبقية التيارات العقدية الأخرى ـ الصبغة الفردية دون أن يتحول إلى تيار عام[47].

وإذا كنا قد رأينا أن تلك التيارات العقدية الوافدة قد تركت آثاراً سلبية في الشمال وعطلت، ولو لبعض الوقت، منابع الاتجاه السني عن مواصلة عطائه المعهود فإن ذلك لم يؤثر من قريب أو بعيد على بلدان السودان الغربي، مع ما بين الشمال والجنوب من تفاعل قديم وصلات مستمرة، اللهم إلا فيما يتصل بحركة المد الإسلامي. وهذا يرجع إلى أسباب أهمها أن تلك المناطق لم تكن مهيأة لخوض غمار الجدل في مسائل العقيدة، فالإسلام السني قد سبق إليها مع طلائع الفتح الإسلامي أو عن طريق تلك الجهود الفردية قبل أن تظهر هذه التيارات العقدية ثم إن بلدان السودان الغربي لم تتحول كلياً إلى الإسلام، وحتى إذا كان هناك من تحول منها فهي لم تكن خاضعة للحكومة المركزية، مما جعلها خارج دائرة الصراع، بل ربما استفادت بعض الشيء من جهود أولئك المضطهدين من أهل السنة الذين لجؤوا إلى تلك المناطق وأصبحوا دعاة للإسلام.

وحتى إذا ضربنا صفحاً عن هذه الآراء فلا أقل من أن تكون مواقف أهل السنة في الجنوب موازية لمواقف أهل الشمال، الذين رفضوا قبول تلك العقائد رغم محاولة أصحابها فرضها بالقوة ومن ثم فمن باب أولى والحالة هذه ألا يكون لأي اتجاه عقدي آخر تأثير في الجنوب.

المدرسة المالكية:

لقد رأينا كيف سبق علم فقه أهل المدينة إلى شمال القارة وإلى جنوبها عن طريق أولئك الفقهاء الذين جاء بعضهم مع طلائع الفتح الإسلامي، أو التحق بتلك الربوع فيما بعد، ومنهم خالد التجيبي الذي أدخل علم فقه أهل المدينة إلى القيروان، ثم جاء من بعده ابن زياد الذي أدخل الموطأ في عهد

(46) انظر: د. عبد المجيد بن حمدة/ مصدر سابق/ ص 210.

(47) د. عبد المجيد النجار/ المصدر السابق/ ص 49.

مالك نفسه، وبذلك يكون قد مهد لانتشار فكر هذا العالم الجليل في تلك المناطق دون أن تبدو معارضة من أحد وهو أمر طبيعي إذا علمنا أن مالكاً لم يخرج في فقهه عن فقه أهل المدينة الذي سبق إلى تلك الربوع اللهم إلا فيما يتصل بأقدار الرجال وتفاوتهم في معارفهم، فضلاً عن أن التفاعل كان قائماً بين المدينة والقيروان، وأن رحلة الفقهاء والدارسين (كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن في العراق طريقهم فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته[48] حتى قيل إن أكثر من ثلاثين فقيهاً كلهم لقي مالكاً ونقل عنه وكان الإمام مالك نفسه يُعْنَى بتلاميذه من تلك البقاع ويهش لهم، ويوجه المتعلمين إليهم وكان بعض أتباعه من المغاربة يأتون ليتسفتوه في بعض المسائل فيحيلهم على البهلول بن راشد وابن فروخ[49]. أما ما انتهى إليه ابن خلدون في مقارنته من أن طابع البداوة بين أهل المغرب والحجاز قد ساعد على الالتفاف حول هذا المذهب وبقائه غضاً عندهم، لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب[50] فلا أعتقد أنه يتناسب مع أصول مذهب الإمام مالك وقواعده، وما يتسم به منهجه من اتساع ومرونة في معالجة القضايا وإصلاح الجماعات وتنظيم شؤونهم[51].

وسواء اتفقنا مع ابن خلدون أو اختلفنا معه فيما ذهب إليه، فهناك ظاهرة تستوقف الباحث عند أول نظرة إلى ذلك العدد الكبير من المدارس الفقهية والاتجاهات الفكرية، التي ظهرت في بيئة العراق دون أن يكون لها ما يماثلها أو

---

(48) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ط3/ 1401هـ مطبعة النهضة مصر الفجالة القاهرة 3/ 1054 ـ 1055.

(49) انظر الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري. معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ط1/ 1320هـ المطبعة العربية التونسية 1/ 198 وكذلك المالكي أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) رياض النفوس. تحقيق حسين مونسي ط1/ 1951م مكتبة النهضة المصرية القاهرة ص 116 ـ 117.

(50) ابن خلدون. المصدر السابق ص 1055.

(51) الشيخ محمد أبو زهرة، مالك حياته وآثاره. ط/ دار الفكر العربي، القاهرة د.ت ص 393.

يقترب منها في بيئة هذا البحث أو الحجاز. ويبدو أن هذه الظاهرة استوقفت الدكتور عبد المجيد النجار، فذهب في تفسيره إلى القول بأن هذه (الأرض لا تطيق تعدد المذاهب، ولا ترتاح إلى لجاجتها وصخبها. فزيادة على كونها لم تكن ولوداً للمذاهب فإنها لم تكن تستجلب منها إلا القليل وأكثر ما يرد إليها يؤول إلى الضمور ويبقى على هامش الحياة[52]. وهو تفسير يصور الواقع دون أن يغوص في الأسباب التي كانت وراء هذا التباين الشديد بين البيئتين، وعلى أي حال فإن التباين في نظري يرجع إلى بيئة بغداد بالذات التي كانت موطن النحل القديمة والمذاهب الدينية والفلسفية المختلفة، وقد انعكس أثر ذلك كله في تلك الاتجاهات المتعددة، في حين لم تكن بلدان الشمال الإفريقي أو السودان الغربي كذلك. وهذا ما يجعلنا نميل إلى التدخل في تعديل فكرة ابن خلدون بعض الشيء فنعزو التشابه الذي أشار إليه بين بيئة الحجاز وإفريقيا إلى بعدهما عن موطن تلك النحل والمذاهب الفلسفية القديمة، لا إلى البداوة التي يقررها ابن خلدون.

وإذا كان فقه أهل السنة كما سبق أن رأينا قد انتشر في الشمال، وكان له صداه أيضاً في الدول المتاخمة لجنوب الصحراء، فهذا يجعلنا نقرر من غير تردد انتقال فقه الإمام وآرائه إلى تلك المناطق منذ ظهوره في الشمال، وبخاصة في عهد الأغالبة والأدارسة الذين أبدوا حماساً قوياً لنصرة فقه هذا الإمام، ثم في عهد المرابطين الدولة التي تبنت فكر الإمام وعملت على تطبيقه حتى قيل إن قيام دولة المرابطين(كان على أساس نشر المذهب المالكي)[53] في بلدان السودان الغربي وهو رأي لا أميل إلى موافقته، فالجنوب كما نعلم لم يكن يقلد مدرسة فقهية أخرى أو اتجاهاً فكرياً معارضاً لمدينة مالك مما يستدعي قيام المرابطين بتنظيم صفوفهم للشروع في الجهاد من أجل نصرة هذه المدرسة أو تلك. فالمرابطون مالكيون ومن المتحمسين لتطبيق فكر مالك وإحياء آرائه، ولكن ذلك

(52) د. عبد المجيد النجار. المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ط1/ 1403 هـ/ 1983م دار المغرب الإسلامي ص 46.

(53) الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش المصدر السابق ص 141.

لم يكن دافعاً لحملتهم تلك، اللهم إلا إذا أخذنا بمنهج هذه المدرسة في الدعوة إلى الجهاد لنشر الإسلام. وإن وقفة أمام رباط عبد الله بن ياسين تجعلنا ندرك مدى اهتمام هذا الداعية الكبير بنشر الإسلام ومحاربة البدع، ثم إن المرابطين حركة قامت فيما بين (430هـ - 515هـ) وهم قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة المجاهدة. وليس المرابطون سوى القبائل نفسها التي أسلمت من قبل وكان لها باع طويل في الجهاد.

أما عن أولئك الذين كانوا على فكر أهل السنة من تلك المناطق قبل مالك فهل لهم أن يتخلوا عما كانوا عليه من فكر ويقلدوا مالكاً أو يلزموا ما هم عليه؟ فهو سؤال في غير موضوع. لأن مدرسة الإمام مالك تعد امتداداً طبيعياً لمدرسة أهل السنة، والمبرزة لفكرها وفق منهجية السلف ذاتها التي تعترف بالواقع العملي وتستجيب لمتطلبات التغيير وتتلاءم مع ما ألف الناس من أعراف، في ضوء أصول محددة وقواعد مستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف، وعمل أهل المدينة الذي جعله من بين قواعده الأصولية التي وطأ على أساسها للناس فقهه، وألف كتاباً صار مرجعاً للدارسين والباحثين والمهتمين بفكر أهل السنة إلى جانب آرائه وفتاويه في المدونة.

فإذا تجاوزنا ذلك نجد أنفسنا أمام سؤال ليس من النوع الذي سبق طرحه. ففقه أهل المدينة تيار متدفق قبل مالك وبعده لا يطرح سؤالاً ولا يثير مشكلة، وإنما الذي يثير مشكلة حقاً هو محاولة تَعَرُّفِ إلى ملامح هذه المدرسة في العقيدة، إذ لا يمكن أن تقوم مدرسة على الفقه وحده. وكان يمكن أن نجد الجواب واضحاً لولا أن أغلب من كتبوا عن المراحل المبكرة من تاريخ الفتح الإسلامي تحدثوا عن الدعوة الإسلامية وأماكن انتشارها حديثاً عاماً، وإذا زادوا الأمر وضوحاً تكلموا عن الفقهاء البارزين الذين صحبوا طلائع الفتح، أو تولوا التدريس في المساجد أو الكتّاب، وفي كثير من الأحيان يصفون الاتجاه السني من داخل الاتجاه الأشعري دون أن يلتفتوا إلى المرحلة التي سبقت الأشعري، في حين أن هنالك مسائل تبرز ملامح الفكر السني في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الدعوة الإسلامية تستحق التوقف وتستجلب الانتباه.

ملامح عامة عن عقيدة أهل السنة

إن أغلب المصادر التي وقفت عندها بحثاً عن تحديد دقيق لمصطلح أهل السنة وجدتها قد لجأت إلى الوصف دون أن تلجأ إلى التعريفات، وكأنها اكتفت بكلمة أهل السنة لما تحمله من وضوح، أو لعلها تقيدت بما ذهب إليه الإمام مالك عندما سئل عن أهل السنة فقال: أهل السنة هم الذين لا يحملون لقباً يعرفون به لا جهمي ولا قدري ولا رافضي[54] وقال الدكتور/ عبد المجيد بن حمدة: أهل السنة هم أهل الحديث والرأي من المسلمين الذين اتفقوا على أصول العقيدة من توحيد الخالق، وقدمه وقدم صفاته الأزلية، وجواز رؤيته من غير تشبيه ولا تعطيل، والإقرار بالرسل والكتب والبعث، وسؤال الملكين في القبر، والإقرار بالحوض والميزان، وثبوت النبوات، ووجوب الإمامة. وترجع اختلافاتهم إلى الفروع، وليس بينهم فيما اختلفوا فيه تضليل أو تفسيق)[55].

وقبل أن نغادر هذا الوصف يجدر بنا أن نشرك التاريخ في إعطاء تحديد أكثر دقة لزمن ظهور أهل السنة، فنقول: هم الذين اعتزلوا الحروب التي قامت بين علي ومعاوية عملياً أو نظرياً أو اشتركوا عن اجتهاد ولم يطعنوا في الصحابة؛ لأنهم يعلمون أن تلك الحروب التي قامت بينهم حركتها دوافع الحرص على تطبيق الشريعة، وأن كل ما جرى بين الصحابة كان عن اجتهاد ونظر، فكان اتجاههم نواة لما عرف فيما بعد بالفكر السني الصحيح[56]. وقد مثل هذا الاتجاه جيل الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين ذكر الدكتور عبد المجيد بن حمدة من بينهم الحسن البصري وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وأبا حنيفة ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل[57]، ونحن لا نختلف معه في عده لهؤلاء من أهل السنة ومنهم أبو حنيفة الذي عرف بتدوينه الفقه الأكبر، إلى جانب شهرته

---

(54) المصري /محمد عبد الهادي/ أهل السنة والجماعة/ معالم الانطلاقة الكبرى/ ط2 ـ 1988 دار طيبة ـ الرياض/ ص 168.

(55) المدارس الكلامية بإفريقيا إلى ظهور الأشعرية/ ط1 ـ 1406 هـ ـ 1986م/ ص 23.

(56) انظر الإيمان والعمل في الفكر الإسلامي/ رسالة دكتوراه مخطوطة للباحث/ ص 158 ـ 159.

(57) المصدر السابق/ ص 24.

في الفقه. ولكن الأمر يتعدى ذلك إلى جهود غيره في معالجة قضايا العقيدة، وهو ما يتطلب الرجوع إلى مصنفاتهم أو ما نقل عنهم من آراء في هذا الاتجاه، دون الاكتفاء بكتب الطبقات والتاريخ، التي اهتمت بذكر أشهر ما عرفوا به من استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية إلى الحد الذي حجب فيه هذا التصنيف، مع صحته، ما تميزوا به من إلمام ببحوث العقيدة التي لا تقل أهمية عن الفقه[58]؛ وذلك لما لها من آثار في بناء الفرد في مختلف نواحي النشاط الإنساني، بل من غير أن يكون لهم من نواح أخرى خيار في الإلمام بطرق البرهنة على وجود الله، والدخول أحياناً في المناظرات، حفاظاً على نقاء عقيدة أهل السنة وأصالتها، والرد على ما يثيره أهل الأهواء والبدع من شبهات. وقد صور الشيخ أبو زهرة حالة العصر بقوله: (كان العصر عصر مناظرات وجدل، فمناظرات شديدة اللجب قوية الأثر بين الفرق المختلفة بين الشيعة والجماعة، وبين الخوارج وغيرهم، وبين أهل الأهواء جملة وبين المعتزلة والمدافعين عن الآراء الإسلامية والعقيدة السليمة القوية، ويرحل العلماء لأجل هذه المناظرات. وقد رأيت أن أبا حنيفة قد رحل إلى البصرة نحو اثنتين وعشرين مرة لأجل مناظرة الفرق الكثيرة المختلفة)[59] ويقال: (إن المعتزلة تبنت أفكاراً استطاعت أن تسندها بالسلطان، فملأت الدنيا محناً ومناظرات استتبعت ردوداً واعتراضات[60]. وكان أول من قام بتلك الردود والاعتراضات هم الفقهاء، بل بلغ الأمر حداً من الصراع بين مختلف الاتجاهات والفرق حتى قيل إن (بعض أهل المشرق نزحوا إلى القيروان والأندلس باحثين عن الاستقرار في بلد إسلامي ليس فيه إلا دين واحد ومذهب واحد وعقيدة واحدة)[61] وبهذا شاع الكلام في صفوف أهل السنة، كما رأينا ولكنه كان يقوم على أسس منهجية تخلو تماماً من

---

(58) انظر: أبو اليزيد أبو زيد العجمي/ الفقهاء وبحوث العقيدة الإسلامية/ الموقف والمنهاج/ ط1 ـ 1406 هـ ـ 1985م/ دار الهلال ـ القاهرة/ ص 7.

(59) الشيخ محمد أبو زهرة / أبو حنيفة/ ط1/ 1947/ دار الفكر ـ القاهرة/ ص 89.

(60) أبو اليزيد العجمي/ المصدر السابق/ ص 52.

(61) القاضي عياض. ترتيب المدارك وتقرير المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك تحقيق د. أحمد محمود بكير ط1/ 1388هـ/ 1968م دار مكتبة الحياة بيروت 1/ 15.

الإغراق في جدل بعيد عن منهاج القرآن الكريم والسنة. وكان مالك ممن يكره الخوض في المسائل التي قد (تجر المسلمين إلى مهالك لا طائل تحتها ولا خير من ورائها، نتيجة إعمال العقل فيما يقصر العقل عن استيعابه)[62]. كما كان يحذر من الكلام في أسماء الله وصفاته وكلامه، وعد المبتدعة ممن لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون[63]. غير أن كراهة مالك للكلام أو عدم دخوله في المناظرات بشكل واسع كما عرف عن أبي حنيفة، لم يكن ناتجاً عن عدم إلمامه بما شاع في عصره من اتجاهات فكرية ومذاهب عقدية، وإنما يرجع ذلك إلى اختلاف البيئات كما أشرنا سابقاً، فضلاً عن الحكم بكثرة المناظرات التي ظهرت في كتابات بعض معاصريه أو من جاء بعدهم ربما تكون من قبيل الافتراض، كما هو الحال في الفقه الافتراضي، وليست دليلاً كافياً على وجود من ناظره. وأياً كان الأمر فإن كراهة مالك لعلم الكلام لم يحل دون مشاركته في الإجابة عما كان يطرح عليه من أسئلة، أو الكتابة في موضوعات تتعلق بهذا الجانب، نحو رسالته إلى ابن وهب في القدر والرد على القدرية[64].

أما عن بحوثه في العقيدة التي تمثل منهجه الفكري (فإنه وإن لم يصلنا عنه بحث مستقل في باب العقائد، فإن آراءه التي تجمع وتستنبط من سيرته ليست بالشيء الهين، بل إن ما وصلنا عنه من أقوال وإجابات تعد كافية[65] في توضيح منهجه بخصوص الذات والصفات والنبوءات ومسائل الغيب ومعنى الإيمان.

فالنصوص عنده دائماً مصدر حكمه واعتقاده، ومن ثم فإن الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه أو أخبر بها رسله هي له، وعلينا أن نعتقدها كما جاءت دون تأويل أو تكييف أو تمثيل[66]. وقد روي أنه سئل عن الاستواء

---

(62) أبو اليزيد العجمي / المصدر السبق/ 171.

(63) مصطفى عبد الرزاق / تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية/ ط3/ 1386 هـ ـ 1966م. مكتبة النهضة المصرية / القاهرة/ ص 366 بتصرف.

(64) القاضي عياض / المصدر السابق/ 1 ـ 151.

(65) أبو اليزيد العجمي / المصدر السابق/ ص 5 من المقدمة.

(66) أبو اليزيد العجمي / المصدر السابق/ ص 171.

فأجاب بعد إطراقة طويلة: الاستواء معلوم والكيف منه غير معقول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب)[67].

ولا شك في أن سداد منهجه السني ووضوح آرائه التي تقوم على تنزيه الله تعالى عما تقتضيه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الموهمة للتشبيه، وتركه الخوض في أي تفسير تفصيلي أو تأويل يؤدي إلى شيء من التناقض أو التوهم، قد كان له أثر كبير في استقامة عقيد من أخذوا بمنهجه وسلكوا سبيله حتى قيل: (إن من تفلسف من علماء المالكية فإنه لا يشذ عن قاعدته السنية فضلاً عمن تصوف، كما نجده في سير البهلول بن راشد والحارث بن أسد القفصي وأبي عثمان سعيد بن سلام المغربي، وأبي يوسف يعقوب بن ثابت الدهماتي فيما بعد وابن رشد في الفلاسفة، فكلهم سني مالكي لم يشذ بآرائه الصوفية شذوذ الحلاج وابن سبعين وابن عربي وابن الفارض وأضرابهم. بل لا نكاد نعثر على متصوف مالكي دان بوحدة الوجود أو سجلت عليه شطحات يشتم منها رائحة الزيغ والحلول. ولما جاءت محنة القول بخلق القرآن لم يجار المالكية بني الأغلب في قالتهم المملاة عليهم من خلفاء بغداد)[68].

تلك هي ملامح مدرسة الإمام مالك السنية التي انتقلت من بيئة الحجاز إلى شمال القارة بسرعة مذهلة، بل في حياة مالك نفسه، ثم إلى بلدان السودان الغربي دون أن تجد معارضاً.

أما عن تلك التيارات المذهبية التي ظهرت في شمال القارة من شيعة وخوارج ومعتزلة، فقد لقيت معارضة شديدة في الشمال، ومن ثم فلم تتحول إلى تيار عام حتى يمكن أن يكون له صدى في الجنوب. وإذا كنا قد أشرنا إلى فرار البعض من بيئة بغداد لأنهم كرهوا ما كان يجري في تلك البيئة من جدل وصراع، فلا شك في أن هنالك من ترك الشمال في تلك الفترات الحرجة التي ظهرت فيها تلك التيارات المعادية لفكر أهل السنة، واستقر في بلدان السودان

(67) القاضي عياض مصدر سابق 1/ 11.

(68) القاضي عياض / المصدر السابق/ 1 ـ 171.

الغربي، فضاعف وجوده ترسيخ هذا الفكر، ثم ظهرت دولة المرابطين التي عرفت بإخلاص قادتها لمدرسة المالكية فقهاً وعقيدة، وتمكنت من ضم تلك المناطق إلى نفوذها، فأسلم على يديها منذ البداية من أسلم على فكر مالك - رضي الله عنه -.

كما عمل المرابطون كل ما في وسعهم على نشر الثقافة العربية والإسلامية، وأسهموا في نقل المؤثرات الأندلسية والمغربية إلى تلك المناطق، ومنها الكتابة على طريقة المغاربة في الخط وإعجام الحروف وترتيبها، فكادت مدارسهم أن تكون مغربية صرفة، تدرس فيها المناهج الكتب التي تُعْنَى بالمذهب المالكي على الخصوص، وظهر تأثرهم بتعاليم ابن ياسين في التشدد في أداء فروض الشريعة وفي تربية أطفالهم(69).

وتأسست مدينة تنبكت في عام (495هـ - 1096م) في عهد يوسف بن تاشفين، أسستها إحدى قبائل الملثمين، فبلغت مكانة كبيرة في الثقافة العربية الإسلامية، حتى إنها لا تقل عن القيروان أو فاس أو مراكش أو قرطبة. اجتمع فيها العلماء من جميع الأقطار، ووفد إليها العلماء والفقهاء من المغرب والأندلس ومصر والحجاز وكلّ بلاد السودان(70).

وكان دعاة المرابطين يصاحبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الدين الإسلامي، فأسسوا المدارس والزوايا والرباطات والمساجد، وقاموا بالتعليم فيها فاكتسبوا محبة الناس واحترامهم، واستمر هؤلاء الدعاة في نشاطهم حتى بعد سقوط المرابطين وقيام دولة الموحدين التي حافظت على فقه مالك، ولكنها أحدثت بعض التغيير في العقيدة، حيث بدأ على أيديهم وفي عهدهم، وربما سبقهم بقليل، التحول إلى الأشعرية يأخذ دوره بين الناس شيئاً فشيئاً، ولا يعني هذا أن هناك تعارضاً بين الاتجاهين، فالأشعرية هي امتداد لحركة السنة، رافق ظهورها ازدهار حركة العلوم، واتساع حلقات البحث، وفنون البلاغة والمجاز،

---

(69) الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش - المصدر السابق - ص 222.

(70) المصدر السابق نفسه - ص 223.

فأدى ذلك إلى الدخول في مرحلة جديدة لتأويل النصوص بما يضعها على صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة[71].

ولعله من المناسب قبل أن نطوي صفحة المرابطين أن نشير إلى أن هناك اتهاماً صريحاً من قبل الموحدين للمرابطين بالتجسيم[72]، أشاعه المهدي بن تومرت في تلك الأوساط التي عملت على تحريكها ضد المرابطين. وهي تهمة لا تعدو أن تكون سياسية حاول الموحدون إشاعتها بين تلك الأوساط؛ لكسب المزيد من الأنصار من ناحية، والتعجيل بإسقاط هذه الدولة من ناحية أخرى. في حين أن المرابطين على منهج أهل السنة كما رأينا، وقد بذلوا كل ما في وسعهم في نشر الإسلام وتعميق جذور الفكر السني في المناطق التي وصل إليها نفوذهم. وحتى إذا افترضنا ظهور التجسيم في عهد المرابطين أو غيرهم، وعلى الرغم من أن هنالك اتهاماً للمرابطين بالتجسيم[73] فهو لا يتجاوز صفوف العامة إلى العلماء ولو صح ذلك لظهر أثره في مؤلفاتهم العلمية. بل لو كان المرابطون مجسمة أو مشركين لما لقي الاتجاه الأشعري ذلك الإقبال في عهد الموحدين من غير معارضة، بل لا أعتقد أن انتصار الموحدين يرجع إلى ما أشيع ضدهم من اتهامات بالقدر الذي يرجع إلى الحركة السرية التي عززت وجودهم فيما بعد، ومكنتهم، بعد الإعلان عن أنفسهم، من الإجهاز على دولة المرابطين التي أنهكتها الحروب مع الأسبان ثم الموحدين.

وبهذا يكون البحث قد أسهم في الكشف عن حظوظ النجاح التي حققها التواصل الإنساني والتفاعل الاجتماعي والثقافي والاقتصادي بين سكان شمال الصحراء وجنوبها في نشر الإسلام وتعميق جذور الفكر السني بين سكان جنوب الصحراء بالذات، من غير أن يكون للسيف أو اللجوء إلى القوة دور يذكر في كل ذلك.

---

(71) د. سعيد محمد رمضان البوطي/ كبري اليقينيات الكونية ـ ط9/ 1411 هـ ـ دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ـ دمشق/ ص 140 ـ 141 موضوع ما انفرد به السلف.

(72) انظر الدكتورة / عصمت عبد اللطيف دندش/ المصدر السابق/ ص 134.

(73) انظر: دكتورة / عصمت عبد اللطيف دندش/ مصدر سابق/ ص 134.